حلم الطفولة

رواية

أسماء قدري

الطبعة الأولى

الزنبق للنشر و التوزيع

2007

الناشر:

الزنبق
للنشر و التوزيع

I.S.B.N

978-9948-436-02-7

©حقوق الطبع و النشر محفوظة للناشر

و يحظر النقل أو النسخ أو الاقتباس.

ة...

إهداء..

حبات غبار تنثرها الأفكار..

أهديها كل من التقط منها حبة..

فسمت به الروح بعيدا ذات نهار..

فكر لحظات فتذوّق منها قطرة..

أدرك معنى الحب و غمرته الأنوار..

أسماء

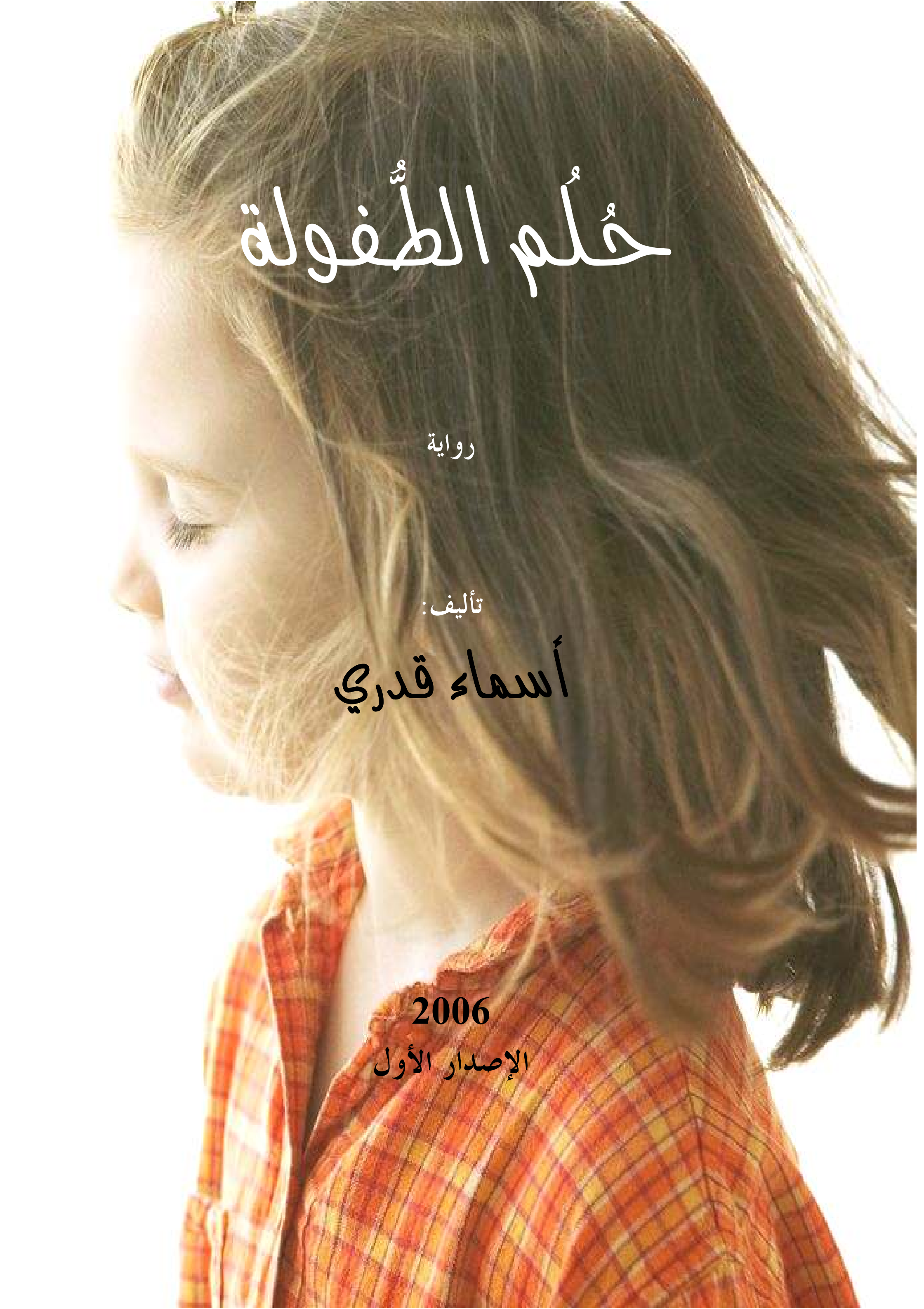

حُلم الطُّفولة

رواية

تأليف:

أسماء قدري

2006

الإصدار الأول

الفصل الأول

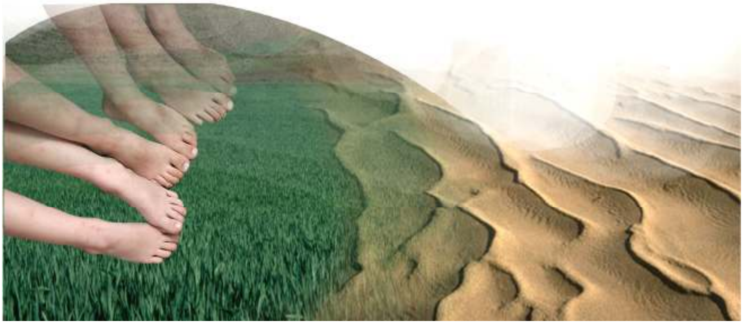

الرمال صفراء مستوية لم تمسسها قـــدم، و الصـــحراء واســـعة متراميـــة الأطراف، الأرض البكر لم تعتد وجوه البشر، السماء زرقـــاء صـــافية، و الشمس هادئة لم تزل تبللها قطرات الندى.

الهواء الرائق يصفع الثياب و يحمل الرمال فلا تستقر في موضع، لا وجـــود للسدود، الأرض ممتدة على مدى البصر خالية تماما إلا من بنـــاء صـــغير استقام وسط الرمال على مقربة من الطريق الرئيسي و لا شيء غير ذلك.

الأفق يملأه الصفار، و لا أحد، لا أحد غيرك في المكان.

حلم الطفولة و الصبا و آمال الشباب الطموحة.

أخيرا! خلت أنني أبدا لن احصل عليها، خلت أنني أبدا لن أصل!

- هوذا طريق الألف ميل.

قالتها لي مها إحدى ثلاثيتنا العتيدة و هي تجلب بعض أشياء من السيارة و تأتي، نظرت إليها بابتسامتي الحالمة و عينيّ الشاردتين. ضحكت عندما رأتني و هتفت:

- كلا، لا أحلام بعد اليوم فقد أتى وقت العمل !

مها تعشق الواقعية المفرطة، لا تعترف إلا بما تلمسه يديها و كل ما سوى ذلك باطل ! كل شيء عندها محسوب بدقة متناهية و لكل شيء حدود مرسومة تراها بوضوح تام، و لأن الأحلام ليس لها قواعد حسابية فهي خارج نطاق فهمها، لكن الأحلام هي ملح حياتي و الأصل في خطواتي، بدونها تفقد الحياة طعمها و لذتها و تتحول إلى ميكانيكية صماء لا روح فيها مجرد شهيق و زفير حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا.

أذكر عندما كنا في المدرسة الثانوية و كلنا طموح لتحقيق المستحيل، كانت تتركنا نحلم و نحكي عن أحلامنا ثم تكون هي من تبدأ بالأسئلة: هل هذا ممكن؟ كيف نفعلها؟ دعونا نضع خطة بالورق و القلم!

كانت هي صوت العقل و الذراع القوية التي تجذبنا نحو أرض الواقع إذا ما طرنا في سماء الخيال، و لولاها لما جئنا إلى هنا.

لكنها لم تكن لتخطط لو ما كنا نحلم !

قلت لها بصوت لم يغادره الشرود كليا:

- كل الإنجازات العظيمة كانت أحلاما، ذات يوم سنجلس سويا في مزرعتنا و الخضار على مد البصر، و نقول: كل ذلك كان يوما حلما تشاركناه سويا.

ابتسمت في صمت و تابعت طريقها نحو البناء الصغير بينما تنهدت أنا و عدت إلى السيارة أخرج منها أشياء أخرى و ما كدت أنظر داخلها حتى صحت في دهشة ضاحكة:

- منى! ماذا تفعلين ؟!

رفعت إليّ وجهها الباسم و هي تعبث في أحد الأكياس و تقول:

- جائعة، أنا جائعة!

ضحكت بمرح و أنا أتأمل ملامحها الحبيبة، منى هي طفلتنا المدللة و أجمل ما في جمعنا الحميم. الابتسامة السعيدة في أي يوم حين أراها، و النسمة الباردة المنتشية التي تهب عليّ كلما أقبلت.

خفة ظلها الجذابة كالمغناطيس على الرغم من ظروف حياتها الباكية مازالت تدهشني حتى هذه اللحظة و تثير عجبي و تفاؤلي معا، لكأن الله أنعم عليها برحمته فمنحها طاقة إضافية للابتسام كي تقاوم بها أحزانها و حياتها الصعبة المعقدة، أو لتجمع حولها أكبر حشد من الأصدقاء رأيته في حياتي يعوضونها عن دفء بيتها المشتت.

لكن إخلاصها هو أجمل ما فيها؛ إخلاصها المطلق الـــذي يتنـــافس مـــع بساطتها الشديدة في جعلها أرق قلب في الوجود، و أحب الناس إليّ.

شاركتني مها التي أقبلت ضحكتي ثم قالت:

- سنأكل لكن صبرا حتى ننتهي من نقل هذه الأغـــراض، ســـاعة واحدة على الأكثر حتى يصل وليد مع عمال السباكة و الكهرباء.

و ابتسمت أنا بتخابث قائلة:

- عموما أنا أقدر جوعك الشديد فأنت ترتدين فاتحـــا للشـــهية في بنصرك منذ ليلة أمس!

ضحكت و خفضت عينيها تتأمل دبلتها الذهبية في حنان قبل أن تقـــول بابتسامة سعيدة:

- فاتحا للشهية و الأمال و أبواب السعادة كلها!

أطلقت مها ضحكة عالية كأنما سمعت لتوها أحدث طرفة و هزت رأسها و هي تحمل صندوقا آخر من حقيبة السيارة بينما لعبت في عـــينيّ نظـــرة عابثة و أنا أطرقع بإصبعيّ قائلة:

- إن كان الأمر كذلك دعيني إذن أقرصك في ركبتك حتى أتبعـــك في جمعتك!

انفجرت في الضحك و هي تبتعد عني و تفتح باب السيارة لتهرب و أنا أجري خلفها بينما هتفت مها من بعيد:

- لسنا هنا كي نتسامر!

توقفنا نلهث و غمزت لمنى قائلة:

- القائد مها، عاشقة العمل!

صاحت مها من بعيد:

- أنا أسمعك!

ضحكت منى بينما صحت بدوري:

- و أنا أعرف!

قلتها و اتجهت مع منى نحو السيارة نحذو حذوها حتى فرغنا من النقل، عندها فركت منى يديها و قالت في حماس:

- هيا نأكل الآن.

هتفت مها مشيرة نحو الطريق:

- ها هم.

التفتنا لنرى سيارة وليد البيضاء تهدئ من سرعتها في طريقها للتوقف و هو يلوح لنا من النافذة.

بادلناه تحيته و ملت على منى قائلة:

- عذرا يا منى!

بدا الاحباط جليا على وجهها على حين تركتها لأتجه نحو القادمين و قد ترجل وليد يلقاني في منتصف الطريق ملوحا لي بكلتي ذراعيه يهتف في حماس:

- مرحى يا أختاه لقد فعلتيها!

ابتسمت قائلة:

- ياه! من فمك إلى باب السماء!

هبط العمال حاملين أدواتهم و اتجهنا جميعا نحو الاستراحة نملي عليهم تعليماتنا حتى بدا كل شيء واضحا عندها صحت منادية رفيقاتي و أنا أسحب أخي من ذراعه. ابتسمت حين اقتربتا مني ثم هتفت بلهجة حماسية:

- أبشري يا منى!

تساءلت في لهفة:

- خيرا؟

اتسعت ابتسامتي و أنا أقول:

- سنأكل!

*　　*　　*

- منار، استيقظي يا منار، منار!

منار منار؟ ما معنى هذه الكلمة؟!

- هيا إنها التاسعة و النصف!

التاسعة و النصف؟! و هذه أيضا ماذا تعني؟!

- ستتأخرين يا منار!

إنها تلك الكلمة ثانية! إنها تبدو مألوفة بعض الشيء.

آه منار! هذه أنا!

فتحت عينيّ بتكاسل و قد بدا لي أن أجفاني تزن أطنان!

- آه الصداع يكاد يقتلني!

قلتها بصوت يملؤه النوم فقالت أمي بعتاب:

- طبعا! طيلة النهار في الصحراء و طيلة الليل في سهر، ماذا تتوقعين؟

أسبلت جفنيّ من جديد و ابتلعت ريقي الجاف، حلقي يؤلمني، يبدو أنني سأصاب بترلة برد. غمغمت بإرهاق:

- أنا لم أكن ساهرة ألهو كان عندي عمل. كم الساعة الآن؟

- التاسعة و النصف و خمس دقائق.

فتحت عينيّ عن آخرهما و قد طار منهما النوم فجأة.

- التاسعة و النصف!

صحت و أنا أقفز من الفراش ممسكة برأسي الثقيل كأنما أخشى أن يسقط!

- يا إلهي! هل استيقظ وليد؟

أومأت برأسها إيجابا و قالت:

- في الحمام الآن.

ثلاث ساعات تلت كنا بعدها ننحاز بسيارتنا يمينا في قلب الرمال الصفراء في أرضنا الجديدة، و أمد ذراعي من النافذة ملوحة لمنى و مها الجالســتين أمام الاستراحة في انتظاري هاتفة:

- السلام عليكم.

لوحتا لي بينما أوقف وليد السيارة لأفتح بابي و أترجل على عجل متجهة إليهما لأتلقى عتاب مها الحاد:

- ساعة تأخير كاملة!

قلت بارتباك:

- نعم، حقا! معذرة فقد استيقظت متأخرة.

و أشرت نحو الاستراحة متابعة:

- هل فعلتما شيئا قبل وصولي؟

قالت منى باسمة:

- فعلنا الكثير؛ انتظرناك!

فركت كفيّ بحماس مازح و قلت:

- ممتاز هذا سيوفر علينا الكثير إذن!

وكزتني مها في ذراعي و رمتني بنظرة لوم بينما صحبتها من ذراعها إلى الداخل ضاحكة و أنا أقول:

- أنت تحتاجين لروح رياضية يا مها! ابتسمي، صدقيني الكون كله سيختلف عندها.

تبعتنا منى قائلة:

- نعم حتى حقيقة أن الوقت قد تأخر هذه أيضا ستختلف، ستفاجئين بالساعة قد عادت عدة خطوات إلى الخلف!

مددت يدي إلى الخلف أحاول أن أصل إليها و هي تبتعد عني ضاحكة بينما أقول:

- كوني محضر خير!

و هكذا بدأنا العمل في تنظيف و فرش الاستراحة.

و عندما خبا ضوء النهار و استراح، و زال احمرار الشفق في الأفق البعيد، كنا قد انتهينا و وقفنا بابتسامة مجهدة و ملامح يبللها العرق نتأمل استراحتنا الجديدة...

بسيطة كانت نعم، لكنها جميلة، مريحة و عملية.

لم تكن تزيد عن ثلاثة حجرات تتفرع من البهو الرئيسي، أولاها عن يمين الداخل من الباب الرئيسي فرشناها بسجادة صغيرة في المنتصف و مكتب

بسيط يقابل الباب تحت النافذة المغطاة بستار أبيض رقيق، و إلى اليسار وضعنا بضعة مقاعد تلتف حول مائدة خشبية مستديرة من النوع "الدمياطي" الذي يمكن فتحه و إغلاقه.

و إلى جوار حجرة المكتب يدور ممر طويل إلى حيث المطبخ و الحمام. و الحجرة الأخرى المواجهة لباب الاستراحة و أهم جرات المكان في رأيي بها المعمل، هذا على وجه الخصوص صممت أنا على تجهيزه من مالي ليكون متكاملا تقريبا من أجل الأبحاث العلمية على التربة و الحبوب، أردت أن نجاري تغييرات القرن الجديد و نزرع بأسلوب جديد أيضا على أسس علمية جادة نطبق بها دراستنا الجامعية لتصبح مزرعتنا بحق مختلفة، عكس قناعة مها تماما؛ هي ترى أنه زائد على المكان، و أنني إنما أردت إيهام نفسي بأنني مازلت على اتصال بالأبحاث العلمية التي كنت أعشقها عشقا في الكلية، كنوع من التعويض عما فاتني حين رفضت وظيفة المعيدة التي يتمناها أي إنسان فقط من أجل هذا الحلم!

لست أدري، ربما كانت على حق إلى حد ما، أنا لا أنكر شدة ارتباطي بأبحاث النبات و خاصة الوراثة، و لا أنكر أن جزءا منّي يشعر ببعض نغزات الندم بين كل حين و آخر، لكن طاقة الحلم الهائلة في أعماقي تغطي عليها و تمحوها كأنما لم تكن..

أما الحجرة الثالثة على يسار الباب الرئيسي فقد أعددناها لتكون حجـــرة نوم بسيطة بثلاثة أسرة صغيرة و خزانة ملابس و مرآة.

ثم لم نزد على ذلك إلا طاقم جلوس خشبي بسيط و لكنه مـــريح، يحتـــل قلب البهو الرئيسي، مكون من أريكة واحدة يحوطها مقعدين تتوســـطهم منضدة صغيرة من نفس طراز الطاقم فوق سجادة أنيقة، ثم مزهرية رقيقـــة وضعتها بنفسي على المنضدة كلمسة أخيرة و وضعت فيها بضعة أزهـــار طبيعية جلبتها معي في طريقي إلى هنا صباح اليوم خصيصا لهذا الغرض.

بإرهاق ابتسمت مها قائلة بصوت متهالك و هي تتهاوى على الأريكة:

- لا يمكن أن تنسى منار شاعريتها حتى فيما يختص بالعمل!

ضحكت منى و لم تعقب و هي تتهاوى في تعب إلى جوارها بينما اتخذت أنا مجلسي على مقعد مجاور و أنا أقول:

- ليس في الأمر شاعرية إنها قاعدة علمية معروفة، فالأزهار تســـاعد على استرخاء الأعصاب مما ينشط الذهن و يعينه على العمـــل و الإنتاج.

أشارت لي بإصبعين و تمتمت بشيء لم أسمعه و هي تسبل عينيهـــا بينمـــا قالت منى بصوت مضعضع:

- لقد انتهيت! متى نعود إلى منازلنا؟ أنا لا أتمنى الآن أكثر مـــن أن أندس في فراشي و أخلد للنوم!

- سنعود بإذن الله فور وصول وليد.

فتحت مها عينيها مع عبارتي و تساءلت:

- و أين هو وليد؟!

ابتسمت قائلة:

- ألم تكتشفي غيابه سوى الآن؟! لقد كان لديه موعد في وسط البلد و قد وعدني بأن يأتي لاصطحابنا عند المغرب. ربما عطله شيء ما لكنه و لا ريب في الطريق بإذن الله.

قالت منى باستنكار:

- أتعنين أننا وحدنا هنا و بدون سيارة؟!

منى أيضا لم تكتشف غيابه سوى الآن!

- هناك سيارة مها بالطبع لكن من هي تلك الشجاعة التي ستخرج في الظلام و تمشي وحدها في قلب الصحراء حتى تصل إليها ثم تقودنا وسط الطريق الصحراوي المنقطع إلى منازلنا؟!

ابتسمت مها بسخرية قائلة:

- حقا ظل رجل و لا ظل حائط!

التفت إليها بتحد قائلة:

- حسنا أيتها المستقلة! هيا افعليها أنا أنتظر أن تثبتي لي عكس ذلك!

زمت شفتيها و صمتت و إن لم تتخل عن الابتسامة الساخرة فتابعت بلهجة متخابثة و أنا أرمقها بطرف عيني:

- و لا يهمنك شيئ من أقوال الناس عن هذا المكان! فأنت لا تؤمنين بالأشباح قطعا!

قطبت مها حاجبيها بينما التفتت إليّ منى قائلة بحدة:

- اصمتي!

علت شفتيّ ابتسامة شريرة و أنا أقول بلهجة نجحت في إضفاء شيء من الرهبة عليها:

- أنا لا أكذب! ألم تسمعي عن قصة البدو اللذين عاشوا هنا قديما ثم..

قاطعتني منى صائحة بعصبية:

- كفى!

كدت أتابع حديثي لولا أن قالت مها بصرامة:

- كفاك يا منار! لا تحاولي إثارة رعبنا فأنت أول من سترتعد خوفا!

ضحكت بمرح و حدجتني منى بنظرة غاضبة فقلت و أنا أهز كتفيّ:

- لا تكابري إذا ما دمت..

بترت عبارتي فجأة عندما خيل إليّ أنني سمعت صوتا ما!

ما هذا؟ هل أتخيل؟!

أرهفت سمعي بينما سمعت مها همس:

- ما هذا الصوت؟!

أنا لا أتخيل إذا!

ارتعدت مني و هي تقول:

- إنه صوت خطوات على الرمال!

خفق قلبي بقوة و الابتسامة الساخرة تنحسر من فوق شفتيّ، غمغمت محاولة أن أتماسك:

- بالتأكيد هي الرياح أو..

تجمدت باقي العبارة في حلقي عندما رأيناه جميعا في منتهى الوضوح! ظلا طويلا طويلا يبدو من الزجاج العلوي لباب الاستراحة يقترب منا أكثر فأكثر.

و بدون كلمة زائدة قفزنا جميعا من أماكننا و أسرعنا نتكوم خلف الأريكة ترتجف أجسادنا كفئران مذعورة و نحن نكتم صرخة الرعب في حلوقنا، و الظل يقترب، يده الآن فوق مزلاج الباب، رباه ليتني أوصدته!

أغمضت عينيّ و أنا أنطق بالشهادتين عندما انفتح الباب و علا الصوت من عنده:

- السلام عليكم، معذرة على التأخير!

*　　*　　*

استغرقت التجهيزات المبدئية وقتا طـــويلا، رصـــف الممـــر المـــؤدي إلى الاستراحة، تحويط الأرض بسور اسمنتي عوضا عن القديم المصـــنوع مـــن الأسلاك، غرس أعمدة الضوء، حفر القنوات و تقسيم الأحواض، إلى آخر هذه الإعدادات.

خيل إلينا أنها استغرقت دهرا لكنها كانت قد انتهت تماما عندما وقفـــتُ إلى جوار مها أمام اللافتة التي اتخذت مكانها بفخر على البوابة الخارجية و قرأت بصوت مرتفع مفعم بالعاطفة:

- مزرعة الأصدقاء..

ابتسمت مها و هي تتأمل اللافتة معي، كنت أنظر إليها فلا أرى اللوحـــة الخشبية و البوابة الحديدية، بل أرى حقولا تموج بأنواع المحاصيل المختلفة و الماشية و الدواجن، و تطير في أرجائها أسراب النحل فتغرق مصر كلـــها بالعسل النقي.

تنهدت في عمق و أنا أهمس:

- مزرعة الأصدقاء، أكبر و أروع مزرعة في النوباريـــة، محاصـــيل اقتصادية و نباتات طبية و ثروة حيوانية و منحل!

ارتفع حاجباها و رمقتني بسخرية لثوان ثم أغرقت في الضحك بـــانطلاق حتى أدهشتني قبل أن تقول:

- ياه! لن تتغيري أبدا! طوال عمرك تنظرين إلى الحياة عـــبر مـــرآة سحرية!

قطبت حاجبيّ و ألقيت إليها نظرة جانبية مغمغمة:

- تشاؤم!

ضحكت من جديد و قالت:

- تركت لك التفاؤل يا صديقتي العزيزة!

مددت نحوها كفي و قلت:

- و ستتركين لي مفاتيح سيارتك أيضا.

أخرجت المفاتيح من جيبها و أعطتنيها قائلة:

- و أين سيارتك؟!

قلت و أنا أنصرف:

- مع وليد.

عادت تسأل:

- و أين وليد؟!

ابتسمت ملوحة لها بكفي و قلت:

- في السيارة. إلى اللقاء!

هتفت بي:

- لم تخبريني إلى أين؟!

التفت إليها قائلة بصوت مرتفع و أنا أواصل السير بظهري:

- تعلمين، إلى الجمعية الزراعية.

اكتفت بقولي فتابعت سيري حتى وصلت إلى حيث تقف سيارتها لأستقلها متجهة إلى الجمعية الزراعية بالنوبارية.

زحام، زحام، زحام!

زحام يتنافى مع كوننا في الصحراء! كل هؤلاء لهم أراض هنا؟!

وصلت إلى مكتب الموظف المسئول فتنحنحت و قلت:

- السلام عليكم.

لم يرد تحيتي و لم يلتفت إليّ فتابعت قائلة:

- أريد تأجير جرار و محراث من أجل.

قاطعني في ضجر قائلا:

- في دورك يا آنسة لو سمحت.

تلفتت حولي أبحث عن صف أو شيء من هذا القبيل كي أتخـــذ لي دورا لكنني لم أجد، لذا فقد اخترت مقعدا و جلست أنتظر.

و مر الوقت دون أن يلتفت نحوي أو يتذكر دوري فصرت أعيد تـــرددي عليه بين حين و آخر لكنه كان يلقاني بنفس الضجر و الحدة فـــأعود إلى

مقعدي بانتظار أن يفرغ من عمله حتى نفد صبري و استأت بشدة من قلة ذوقه فاتجهت لمكتبه بغيظ و قد عزمت على أن أحصل على ما أريد هـــذه المرة أو أثير له مشكلة حقيقية. و لم أكد أصل إلى مكتبه حتى قلت بحدة و صرامة:

- لا أظن أنه من اللائق أن تتجاهلني هكذا طوال الوقت!

إلتفت إلي بدهشة كأنما يراني للمرة الأولى و قال:

- و من أنت؟!

غلى الدم في عروقي و تمنيت لو لكمته بقوة في أنفه المتغطرس هذا لأعرفه من أنا لكنني تمالكت أعصابي بصعوبة بالغة فارتفع صوتي على الرغم مني و أنا أقول:

- أحد ملاك (ع٠٦٢٠)!

ساد الصمت فجأة على المكان بعد عبارتي و رأيت كـــثيرا ممـــن حـــولي يختلسون النظر إليّ في فضول حتى شعرت بالخجل يغمرني و يدفع بالدماء الساخنة إلى وجنتيّ بينما ارتسم الاستنكار ممتزجا بالذهول علـــى وجـــه الموظف المسئول و هو يحدق في وجهي ببلاهة قائلا:

- أنت؟!

أغاظني تعقيبه الغبي غيظا تغلبت به على خجلي فقلت بحدة:

- نعم. ألديك مانع؟!

بدا كأنه لم يسمعني و هو يردد ببلاهة:

- أنت صاحبة (ع٦٢٠) ؟!

عادت رغبتي الشديدة في أن ألكمه تتملكني لكنني عدت أتمالك أعصابي و أخرج من ملف في يدي بصبر نافد وثيقة التمليك لأضعها أمامه على المكتب بصمت و أراقب بعجب تلك اللهفة الشديدة التي قرأ بها الوثيقة قبل أن يهز رأسه بذهول و يسألني:

- ثلاث فتيات؟!

أومأت برأسي إيجابا فتابع:

- و لكن أليست هذه أرض الدكتور حسن؟!

تنهدت محاولة تهدئة أعصابي الثائرة و قلت:

- حسن منصور؟ بلى كانت كذلك حتى اشتريناها منه منذ عدة أشهر.

اتسعت عيناه في ذهول و هتف:

- ماذا؟! مستحيل!

قلت بحدة من بين أسناني:

- الأوراق سليمة؟!

صمت للحظات ثم قال في حيرة:

- نعم و لكن..

قاطعته بحدة أكبر:

- أعطني المعدات إذا من فضلك لأنني تأخرت و سئمت الانتظار!

اختطف موظف آخر الأوراق من أمامه قائلا:

- تعالي معي يا آنسة سأهئ لك كل شيء.

تبعته في صمت بينما عقلي لا يهدأ يلقي تساؤلاته و تصرفات ذلك الموظف الغبية لا تبدو لي غباء محضا كما ظننت في البداية لابد وراءها ما يريب.

تذكرت يوم اشترينا هذه الأرض، كانت فرصة ذهبية، سعر منخفض و مميزات رائعة.

كاد صاحبها أن يقول: خذوها و فوقها ثمنها!

أتساءل الآن إن كانت تلك المميزات حقيقية خاصة و أنه لم يضرب فيها فأسا!

يد على كتفي أيقظتني بغتة، نظرت لأجدها امرأة شابة همس لي:

- أتسمحين لي بنصيحة؟

احتل الاهتمام ملامحي فتلفتت حولها قبل أن همس:

- اجمعي أشياءك و ارحلي.

وجدت نفسي أصيح باستنكار:

- ماذا؟!

أشارت إليّ بالصمت و قالت و هي تنصرف:

- اجمعي أشياءك و ارحلي قبل فوات الأوان.

ألقت عبارتها الأخيرة و ابتعدت بخطوات سريعة كمن يلقي قنبلة و يهرب قبل أن تنفجر فيه، لكنني لم أكن لأتركها تمضي هكـــذا دونمـــا تفســـير، أسرعت أهرول خلفها و أمسكها من ذراعها هاتفة:

- لا، انتظري! لا تمضي دون أن أفهم!

ارتبكت المرأة عندما جذب هتافي الأنظار فأبعدت كفـــي عـــن ذراعهـــا بعصبية قائلة بحدة:

- ما هذا؟ ابتعدي عني!

قلت بإصرار:

- ماذا تعنين بفوات الأوان؟! لماذا تريدينني أن أرحل؟ مـــا الـــذي يحدث هنا؟!

بدا الانزعاج الشديد على ملامحها و شاب نبراتها الذعر و هي تتملص مني بتوتر و تقول:

- أنا لا أعرف شيئا و لم أقل شيئا! اذهبي و افعلي ما بدا لك هـــذا ليس من شأني.

و أسرعت تحث الخطا مبتعدة في توتر و هي تلعن نفسها لأنها كلمتني بينما تسمرت أنا مكاني و كياني كله تعتريه رعدة قوية.

هذا لا يعجبني!

ماذا تعني؟! و لماذا أنكرت ما قالته بذعر عندما سمعنا الناس؟!

زفرت في توتر، هذا الغموض القاتم يحوط كل شيء و يزعجني بشدة!

لكنني يجب أن أعرف.

* * *

عدت إلى الموقع و عقلي يطن! لست أدري لماذا لم أرو ما حدث لمنى أو مها، اكتفيت ببدء العمل بمجرد وصول المعدات الثقيلة و بررت لهما شرود ذهني و انعقاد حاجبيّ المستمر بأن موظف الجمعية الزراعية قد أثار حفيظتي.

لكنني أبدا لم أستطع انتزاع ذلك الأمر من تفكيري، ظلت كلمات تلك السيدة المريبة تدوي في أذني طيلة الوقت.. "ارحلي، ارحلي قبل فوات الأوان!"

و الأكثر عجبا من تحذيراتها الهامسة هو انكارها المتوتر لكل ما قالته حين ارتفع صوتي و أنا أسألها كأنما لا تريد أن يعلم أحد بما قالته لي أو أنها تخشى ذلك بشدة.

و هكذا ظلت الأفكار تدور بي في دوائر حتى عدت إلى المترل و دخلت حجرتي و أنا على شرودي لا أشعر بالوقت حتى أتتني أمي تنبئني بأن مها تريدني على الهاتف.

أمسكت بالمسماع قائلة بإرهاق:

- مرحبا يا مها، أوحشتك بالتأكيد!

قالت بصوت يبتسم:

- نعم و لا ريب، ساعة كاملة لم أرك!

ضحكت بشحوب و سمعتها تسألني بجدية:

- منار، ما الذي كان يشغلك اليوم طيلة النهار و أخفيته عنا؟

صمتُّ فتابعت هي:

- نحن لم ننخدع بتيريراتك، و ربما تكون منى أيضا على وشك محادثتك هي الأخرى بمجرد أن أغلق أنا الخط.

ساد الصمت على الأسلاك للحظات، قبل أن أقول و قد قررت التحدث في صراحة:

- في الحقيقة إنه أمر حدث اليوم في الجمعية الزراعية.
- و لماذا لم تخبرينا به؟
- لست أدري، ربما لم أرد إثارة قلق قد لا يكون ذا داع، أو ربما خوفا من ردة فعلكما!

- أهو شيء يخصك وحدك أم يخصنا جميعا؟

عندها عجزت عن الإجابة.

لقد وضعتني كعادهّا في مأزق منطقي ببساطة شديدة! هذا هو أكثر ما أحبه في تلك الفتاة، وضوحها الشديد و بساطة منطقها المذهلة!

هي بالفعل على حق، فلو كان الأمر يخصني وحدي فلم تكن لتلح عليّ في معرفته، لكن طالما هو يخصنا جميعا فليس لي إذا أن أنفرد به وحدي. هذه هي مها التي أعرفها، تعرف جيدا مسئولياهّا فلا تتركها أبدا و لا تتعداها أبدا!

قلت باستسلام بعد لحظات من الصمت:

- لا بأس، سأخبركما بكل شيء حين نلتقي غدا صباحا بإذن الله.

نفس الاتفاق عقدته مع منى حين هاتفتني حتى إذا كان اليوم المقبل، و التفتّا حولي في بهو الاستراحة كطفلتين تلتفان حول جدهّما بانتظار حكايات المساء؛ طفقت أروي حكايتي.

و بمجرد أن انتهيت قالت لي منى و هي ترمقني بنظرة تشكك:

- أواثقة أنت من أنها ليست إحدى دعاباتك السخيفة؟!

ابتسمت قائلة:

- أرأيت؟ هذا بالضبط هو ما تصورته!

سألتني مها باهتمام:

- و لماذا لم تسألي أي شخص آخر؟ ذلك الموظف الذي ساعدك مثلا.

قلت:

- لقد فعلت لكنه ابتسم باستخفاف و قال لي: لا تشغلي بالك بكل ما يقال. و حين ألححت عليه أن يخبرني بما كانت تلك المرأة تعني هز كتفيه و قال: مالي أنا و مال ما قالت؟ اذهبي و اسأليها هي.

صمتت و قطبت حاجبيها مفكرة، و مضت لحظات من الصمت قبل أن تقطعه منى قائلة:

- اسمعي يا منار، ليس معقولا أن نقلق أنفسنا هكذا لمجرد كلمات قالتها امرأة لا نعرفها، ربما كانت مخطئة و ربما كانت مجنونة مثلا!

و قالت مها موافقة:

- نعم، أو ربما كانت لها رغبة سابقة في شراء هذه الأرض و تريد إخافتنا منها كي نرحل و نتركها لها بنفس الثمن الزهيد الذي اشتريناها به.

التزمت الصمت أسمعهما و أنا أفكر، إذن فالرأي السائد هنا هو أن نتجاهل ما قيل كأنما لم نسمعه أصلا، لا بأس، و إن يكن هناك ما يخيف فلنترك الأيام تكشفه لنا، و لن يمنع حذر قدرا.

*　　　*　　　*

أخفيت وجهي في منديلي و عطست بقوة..

- الحمد لله!

لقد صدق حدسي، و هاهي بوادر البرد تبدو في الأفق و قد بدأت أشعر بعظامي تتكسر و الصداع يدق في رأسي كنجار مصمم على إنفاذ مسمار في قطعة من الحديد!

مسحت أنفي بالمنديل و عدت أتابع عملي.

كنت أجمع عينات من أماكن متفرقة من الأرض من أجل تحليل التربة حين لامست أصابعي شيئا وبريا غضا..

أجفلت و سحبت كفي بسرعة و أنا أظنه أحد حيوانات الصحراء.. ترقبته قليلا لكنني لم ألحظ أي نوع من الحركة تحت الرمال.. فمددت عصا صغيرة أزيح بها الرمال عن هذا الموضع في بطء و حذر حتى تكشفت لي..

لكزتها بعصاي عدة مرات فلم تتحرك و من ثم تأكدت أنها ليست كائنا حيا، بأطراف أصابعي أمسكتها و رفعتها من وسط الرمال لأقربها من عيني المشدوهتين و أقلّبها بين يدي في عجب...

كانت رقعة جلدية ربما من جلد الغنم المدبوغ خطت عليها بعض كلمات بالعربية تحدها من جميع الجوانب نقوش غريبة لم أفهم لها معنى..

غمغمت أقرأ لنفسي الكلمات المكتوبة:

- ابتعد أيها الدخيل، و لتحترس من لعنة الأرض المحرمة..

"لعنة الأرض المحرمة!"

أغرقت في الضحك، ياله من مقلب!

لابد من أن أري هذه للبنات !

أخذهًا في جيبي و عدت لأتابع عملي لولا أن سمعت صرخة مدوية انتفض لها جسدي برعب..

يا إلهي ! إنها منى !

هببت من مكاني تاركة كل ما كان بيدي و أسرعت أجري نحوها و قلبي يخفق مذعورا، و عندما وصلت إليها كانت منى ساقطة أرضا تتأوه في ألم و مها تساعدها على النهوض فانحنيت عليها هاتفة بانزعاج:

- ماذا حدث ؟! هل أنت بخير ؟!

أجابتني مها قائلة:

- لقد سقطت عن الجرار..

- عن الجرار ؟! و ما الذي أصعدك فوق الجرار ؟!

ابتسمت منى بشحوب و حرج و قالت و هي تنفض الرمال عنها:

- كنت أحاول قيادته لكنني فقدت توازني و سقطت!

حدجتها بنظرة عتاب و أنا أقول:

- ألم نتفق أن ندع هذه المهمة للسائقين ؟! ما الذي جعلك تجازفين و أنت لا تعرفين شيئا عن قيادته ؟!

صاحت:

- أردت أن أجرب فقط!
- من فضلك لا تجربي بعد ذلك قبل أن تتعلمي، حمـــدا لله إذن أن سقطت فتلك أقل الأضرار، لو كنت....

قاطعت مها جدالنا الساخن هاتفة بدهشة:

- ما هذا العبث؟!

نظرنا إليها بتساؤل، كانت تقرأ شيئا بين يديها تعرفتـــه علـــى الفـــور و تفجرت دهشتي، قطعة صغيرة من جلد الغنم المدبوغ..

مرة أخرى ؟!

مددت يدي أختطفه منها و أقراه بلهفة في صوت مسموع:

- احذر أيها الدخيل، فالموت جزاء من يدنس الأرض المقدسة!

هذا عجيب فعلا، لم أتصور أن نجد أكثر من واحدة!

ضحكت منى بعصبية و هي تقول باستنكار حاولت عبثـــا أن تحولـــه إلى مزاح:

- ما هذا؟! لعنة الفراعنة؟!

ابتسمت مها بسخرية ممزوجة بالقلق بينما أخرجت القصاصة من جيبي و قلت:

- هذه القصاصات منتشرة هاهنا.

التقت أعينهما المندهشة لديّ بتساؤل فناولتهما القصاصة، مطت مها شفتيها و قالت محاولة طرد مخاوف أعلم أنها وجدت طريقا إلى قلبها:

- قد لا تعني شيئا!

و قالت منى بصوت اعترته رعشة خفية:

- لا، ليس مع ما قالته تلك السيدة صباح أمس لمنار، هي ليست مصادفة بالتأكيد!

قالت مها بحدة:

- ماذا تعنين بذلك؟! ألم يكن رأيك أنت أنها مجنونة و أنه "ليس من المعقول أن نقلق أنفسنا هكذا لمجرد كلمات قالتها امرأة لا نعرفها"؟!
- كان هذا قبل أن نجد هذه القصاصات، الآن الأمر يختلف، ربما هناك لعنة حقيقية في هذا المكان!

تأملتها في إشفاق و قلت برفق مبتسمة:

- مستبعد يا منى طبعا، تلك اللعنات و الأعمال السحرية إنما هي مادة غنية لأفلام الرعب لا أساس لها من الواقع.

ثم تنهدت شاردة في الأفق و تابعت:

- الاحتمال الواقعي هو أن هناك من يريد إبعاد الناس عن هذا المكان لسبب ما. لماذا يا ترى؟!

ساد الصمت لبرهة بعد عبارتي حتى هتفت مها فجأة:

- منار إنها الواحدة!

نظرت في ساعتي و قلت مبتسمة:

- هل جعتِ ؟!
- ألم تلحظي؟! إنها الواحدة و لم يأت السائقان بعد!

* * *

الجمعية الزراعية تارة أخرى، و هاهو ذات الموظف العجيب الذي يستفزك كلما رأيته من قبل حتى أن ينطق بحرف..

توجهت إليه مضطرة لأسأله في حزم مهذب:

- من فضلك...

قاطعني في خشونة دون أن ينظر إليّ:

- في دورك يا آنسة!

شعرت بدماء الغيظ تحتقن في وجهي. في دورك! في دورك! أين هذا الدور الذي يتحدث عنه ؟!

أهي الكلمة الوحيدة التي يحفظها من اللغة العربية ؟

لكنني لن أنتظر هذه المرة، ليس ثانية !

تمالكت أعصابي و قلت بصوت تعمدت أن يكون قويا صارما:

- أردت أن أسأل عن....

قاطعني بحدة قائلا و هو يرفع رأسه إليّ:

- قلت في دورك يا....

بتر عبارته بغتة حين رآني و ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيه و هو يقول باستخفاف:

- أنت!

استفزتني لهجته بشدة لكنني آثرت أن أبقي على هدوئي و ألقي ما أنا قائلة باقتضاب حتى أبتعد عن هذا الشخص السخيف، قلت في هدوء و إن احتفظت بصرامة صوتي و قوة لهجتي:

- نعم. أين السائقين ؟ إنهما لم يحضرا اليوم.

اتسعت ابتسامته الساخرة و التمع في عينيه بريق أقسم أنه كان يموج بالجذل!

هذا الشيء يستمتع بتعذيب الآخرين! إنه مريض! أقسم أنه مريض حقيقة لا توهما، و أنا المسكينة التي ألقت بها الأقدار في طريقه !

كدت أعيد عليه سؤالي لولا أن قال بهدوء شديد و ابتسامته الجذلة مازالت تتوج شفتيه:

- و لن يذهبا أبدا!

تفجرت دهشتي، و وجدتني أسأله في حدة:

- ماذا تعني؟ لم ذاك؟!

قال كأنما لم يسمع تساؤلي:

- لا هما و لا سواهما، لن تجدي سائقا واحدا يقبل العمل في أرضك.

يبدو أنه لن يتوقف عما يفعله إلا حين أمضي من هنا!

توترت قبضتيّ و قد بدأ القلق يراودني و استحال الصداع إلى طبول مجنونة راحت تدق في رأسي تتفجر و تكاد تفجرني، عندها تأكدت من أنني سأفقد السيطرة على أعصابي حتما ما لم أنصرف، و فورا.

و بدون أية كلمة إضافية ابتعدت عن مكتبه بسرعة كأنني أخشى أن يتبعني، إنه مجنون! هذا الرجل مجنون بالتأكيد!

يجب أن أجد السائقين الآن، يجب أن أجد عاقلا لأسأله!

و قبل أن تزداد حيرتي رأيتهما و حمدت الله في سري، كانا هناك في الفناء يجلسان سويا على الأرض و يأكلان، و ما إن أبصراني حتى عمهما

الارتباك و بدا كأنهما يريدان الهرب من أمامي لكنني أسرعت أســـتوقفهما هاتفة:

- مهلا ماذا حدث؟! لماذا لم تأتيا اليوم إلى الموقع؟!

تلعثما و تبادلا النظرات المرتبكة يبحثان عن مبررات قوية أو واهية أو أي شيء يصرفني الآن عنهما، و لما لم يجدا شيئا استجمع أحدهما شجاعته في النهاية و قال لي بحزم مشوب بالإعتذار:

- عذرا يا باشمهندسة، فنحن لن نتابع العمل في أرضك!

هنا فقدت أعصابي بالفعل و في صدري من الدهشة و الغضب معـــا مـــا تفيض به البحار! هذا كثير، هذا حقا فوق احتمالي! كأنما نشـــر ذلـــك الموظف المريض هناك عدواه بين كل العاملين فراحوا ينفثون سمـــومهم في كل البشر!

- هل لي أن أعرف لماذا على الأقل؟!

رمقني بتشكك و قال بحذر:

- أظنك تعرفين بالفعل!

عقدت ذراعيّ في تحد و حسم، يجب أن أضع حدا لهذا الهراء خاصة و أن رأسي يكاد ينفجر من حدة الصداع و الغيظ معا، ازدادت حدة صـــوتي مغرقا بأمواج الغضب الذي يملؤني و قلت بلهجة صارمة لا تقبل الجدل:

- لا! لست أعرف شيئا من كل هذا العبث، و سيخبرني أحدكما الآن و فورا قبل أن ينفد كل مخزوني من الصبر و أتجه الآن إلى مدير المكتب لأعرف منه هو سبب تقصيركما في العمل، و لا أتركه حتى يتحفكما بخصم بضعة أيام من راتبيكما و إجباركما على أداء واجبكما خاصة و أنني أشكو من صداع رهيب بالفعل و لن أكلف نفسي مشقة العفو في مثل هذه الظروف!

تسمرا أمامي مبهوتين لثوان و قد فاجأهما تهديدي الصريح و بدا عليهما التردد يتبادلان النظر في توتر كأنما يتساءلان إن كنت أملك تنفيذ ما قلته فعلا، و احتفظت بوقفتي المتحدية الواثقة حتى ازدرد أحدهما لعابه ثم تلفت حوله و قال هامسا:

- حسنا، سأخبرك، لكن أرجوك: أنا لم أقل شيئا و لا أعلم شيئا!

و على الرغم من أنني لم أفهم سر ذلك الخوف الشديد إلا أنني أومأت برأسي موافقة بسرعة و أنا أقول بلهفة:

- اتفقنا، هات ما عندك.

* * *

- ماذا ؟!

تراجعت أمام صرختهما المزدوجة المشحونة بالاستنكار فابتسمت علـــى الرغم مني و قلت:

- هما، لا أنا!

صمتت مها تماما و عقدت حاجبيها باستنكار صارخ بينما صاحت منى:

- ماذا تعنين بأنهما لن يأتيا أبدا؟

رفعت سبابتي أمامهما مصححة و قلت:

- ليس هما فقط بل لا أحد على الإطلاق.

عندها قالت مها بحدة:

- و ما سبب هذا الإضراب من فضلك؟!

اتخذت لي مقعدا و أنا أقول في سخرية:

- الخوف من الأشباح !

مطت مها شفتيها في ضيق بينما صاحت فيّ منى:

- منار، ليس هذا وقت المزاح !

- أنا لا أمزح، هذا هو ما قالوه هم!

حدجاني بنظرة استنكار متحدة فابتسمت قائلة:

- اهدآ و اجلسا و سأحكي لكما كل شيء.

و تنهدت بعمق ريثما تجلسان قبل أن أقول:

- يزعمون أن هذه الأرض بالذات مسكونة منذ زمن طويل بأشباح قبيلة بدو كانت تعيش هنا قديما و هلكت عن بكـــرة أبيهـــا في ظروف غامضة، و حتى الآن مازالت اللعنة تخيم على أراضيهم، و أشباحهم تحوم حول المكان لتؤدب كل من تسول له نفســـه أن يستولي عليها.

قلتها فملأتني السخرية و انفلتت مني ضحكة استهزاء قصيرة على الـــرغم مني بينما قالت مها في تشكك:

- أليست هذه قصتك أنت؟ لقد ذكرت شيئا من هذا القبيل تلـــك الليلة عندما كنت تحاولين إرعابنا.
- نعم لكنها ليست قصتي بالضبط فقد سمعتها من قبل بصورة عابرة أيام شرائنا لهذه الأرض و لم ألق لها بالا، لم أكـــن أظـــن أنهـــم يأخذونها مأخذ الجد لهذه الدرجة! و المضحك فعـــلا أن هـــؤلاء الأشباح لهم صيت ذائع في النوبارية كلها و سطوة ليس بعـــدها سطوة، الكل يخشاهم و يتجنب غضبهم كأنهم حـــولهم في كـــل مكان!

ثم اعتدلت مستطردة:

- و العجيب فعلا هو ما أخبروني به عن الدكتور حسن منصور، ألم يقل إنه مهاجر إلى كندا؟

أومأت منى برأسها و قالت:

- بلى، لابد و أنه سافر فعلا من زمن.

زفرت وقلت:

- ليس حسبما قالوا؛ يزعمون أنه في مستشفى المجانين!

أطلقت منى صيحة خافتة غطت فمها على إثرها بينما هتفت مها بحدة:

- ماذا؟!

و اندفعت منى قائلة:

- مستحيل! كان يبدو أعقل العقلاء! كيف حدث هذا؟!

ابتسمت بسخرية معلقة:

- بفعل الأشباح بالطبع! حلّت عليه اللعنة!

توقعت أن يشاركاني ضحكتي الساخرة، أن يضيفا تعليقات مرحة أو حتى أن يبتسما في هدوء، لكن لدهشتي الشديدة لم يقابلني منهما إلا وجوم تام بتر الضحكة في حلقي فرحت أبدل ناظري بينهما بعجب قبل أن أقول:

- ما الحكاية يا بنات؟! نحن لن نصدق هذا الهراء بالطبع، أليس كذلك؟!

نفضت مها رأسها و تمتمت:

- بلى بكل تأكيد!

لكن منى صمتت تماما و قد أطرقت بعينيها أرضا فسألتها:

- ماذا يا منى؟! أرجوك لا تخبريني أنك تصدقين مثل تلك القصص الخرافية!

رفعت لي عينيها الحائرتين لأرى أشباحا من الخوف تبدو فيهما فأعجب لها حتى النخاع، قالت بصوت هامس تشمله رجفة رهبة:

- لست أدري يا منار، لكنني لا أشعر بالراحة! لا تنظري إليّ هكذا، و إلا فلتخبريني أنت: أيبدو لك كل ما يحدث هنا طبيعيا؟! أتصدقين أن تتوالى الصدف هكذا كل واحدة تكمل طريق سابقتها في تسلسل عجيب إلا إن كان لهم جميعا معنى واحد؟

صمتت قليلا أتأملها عاجزة عن الكلام، فاجأني أن أسمع منها رأيا كهذا خاصة و أنها كانت أول من سخّف تحذير تلك المرأة و اتهمتها بأنها مجنونة أو متآمرة!

- لا يوجد شيء في هذا الكون يسمى "صدفة" يا عزيزتي! هناك قدر فقط و حاشاه أن يكون بلا معنى، ما يحدث هنا ليس إلا سلسلة من أحداث مقدرة لها حكمة و مغزى لكنه بكل تأكيد لا يمتد بصلة لتلك الخرافات الساذجة التي ذكرها السائق! إنه شيء آخر منطقي و واقعي تماما و إن كنا لم ندركه بعد، و سيأتي يوم أذكرك فيه بقولي هذا.

زمت شفتيها في توتر فقلت برفق:

- متى أنت تعلمين أن الأشباح لا وجود لها، يدهشني أصلا أن أضطر لتذكيرك بهذا!

قالت في خفوت بعد شيء من تردد:

- لا وجود للأشباح لكن الجن موجود، و هنا بالذات في الصحراء!

التقطتُ الخيط من يدها و قلت:

- و إن كانوا جنا، فأي ضرر يملكون لنا و معنا الشرع و القرآن حصنا منيعا؟

تنهدَت في حيرة بأنفاس حارة ترتجف، ليتني أستطيع حمل هذا الخوف عنها، ليتني أملك إقناعها، أن أريها الأمر كما أراه، لكنها صديقة عمري و أنا أدرى الخلق بها، لن تصدقني أبدا إلا حين أمنحها تفسيرا كاملا مفصلا لكل شيء، و حتى أفعل فلن تهدأ حتى نقبع في منازلنا بانتظار ظهور الحقيقة.

و قد صدق حدسي فقد اندفعت قائلة بعد برهة من الصمت:

- و لنفترض صحة ما تقولين، هل لك أن تقترحي حلا لمشكلة السائقين؟!

ابتسمت و أنا أقول:

- حلا غير أن نترك كل شيء و نعود إلى المترل طبعا.

غمغمت بابتسامة خجل خفية:

- أنا لم أقصد أن...

قاطعتها قائلة:

- لا بأس يا منى أنت لم تقصدي، أما عن السائقين فقد اقترحت أنت حل هذه المشكلة من قبل..
- ماذا؟ نقودها نحن؟!
- نعم، هذا هو الحل الوحيد.
- لكنك قلت من قبل...
- دعك مما قلته فلكل وقت أذان كما يقولون، لقد وعدني وليد بأن يساعدنا في مشروعنا بأية طريقة نطلبها منه و قد أتى وقت الوفاء، سأعرض عليه هذه المشكلة و أنا واثقة بإذن الله من أنه سيجد حلا.

رفعت مها رأسها باهتمام و مطت منى شفتيها بقلق مازال يعبث في أعماقها فأمسكت بكتفيهما و واجهتهما أنقل ناظري بينهما و أقول بكل حماسي و إصراري و رغبتي في الاستمرار:

- إنه حلم عمرنا يا بنات، حلما شربناه سويا و طعمناه و خططنا له سنوات الطفولة و الشباب، و من أجله اخترنا تخصصاتنا و دراستنا الجامعية، أتذكران؟ كل الدورات التدريبية و الكتب و التحضير الطويل لمزرعة مختلفة على أحدث الأسس العلمية،

"مزرعة الأصدقاء" أليس كذلك؟! المحاصيل الاقتصادية و النباتات الطبية، الثروة الحيوانية و المنحل، لقد رسمنا كل شيء معا و عشناه معا قبل أن يتحقق، حتى أنواع المحاصيل و أزهار العسل اخترناها، إنها قائمة في قلوبنا و أذهاننا منذ زمن بعيد بكل تفاصيلها، أنستسلم بعد أول عقبة؟ الآن بعد أن اقتربت منا و كدنا نلمسها بأيدينا؟ و يا ليتها عقبة حقا غير أنها مجرد إشاعة سخيفة من العيب أن تصدقها جامعيات مثقفات مثلنا، أليس كذلك؟!

صمتت لحظات أستعيد أنفاسي و أحاول رصد أثر كلماتي عليهما، كان من الواضح أن خطبتي القصيرة قد أعادت إشعال جذوة الحماس في أعماقهما و بدأت غيوم القلق تنقشع شيئا فشيئا تشتتها حرارة إصرار وجد طريقه إلى قلبيهما من جديد، مددت كفي مفرودا أمامي و قلت:

– عن نفسي أنا سأبقى، و سأقاوم مهما كانت الصعاب، فمن معي في ذلك؟

ابتسمت منى في صمت و رفعت كفها و تبعتها مها لتلتقي أكفنا بيننا و تقول مها بسخريتها المعتادة:

– بعد هذه الخطبة العصماء ليس لنا حجة، فقط عدينا ألا تفعليها مرة أخرى!

تبادلنا النظر للحظات قبل أن ننفجر سويا في الضحك.

*   *   *

الفصل الثاني

كانت الحماسة تملأنا حين اتجهنا إلى الموقع صباح اليوم التالي و معنا وليـــد الذي استطاع بالفعل تدبير أمر من يعلمنا قيادة الجرار و المحراث، و بعـــد أيام قلائل لم تعد لدينا مشكلة في قيادتها، و بدأنا العمل الجاد بكل إصرار و قوة و التحدي يجري محل الدم في عروقنا، لكن ما حدث بعد عدة أيـــام كان أقوى من الاحتمال!

فلم نكد نفتح المرآب في الصباح حتى فوجئنا باختفاء الجرار و المحراث معا بلا أثر!

كانت تلك هي القشة الأخيرة، بل المطرقة الأخيرة التي قسمت ظهورنا و حطمت أعصابنا و انهارت تحت ثقلها معنوياتنا إلى ما تحت الصفر في لحظة واحدة.

كان أول و أعنف رد فعل بيننا لمنى، فقد راحت تصرخ في انهيار و تركض في رعب مبتعدة عن المرآب حتى وصلت إلى سيارة مها فقفزت بها و انكمشت على نفسها داخلها و هي ترتجف.

و ارتعد جسد مها و تقلصت ملامحها بتوتر و قالت و هي تجذبني من ذراعي بكف باردة ترتعد:

- هيا يا منار من هنا، لنعود إلى ديارنا!

لم أعترض هذه المرة، و لم أستطع منع الخوف الشديد الذي اعتراني بصقيعه المؤلم و تغلغل في كل كياني مطلقا قشعريرته الباردة إلى أنحاء جسدي لتسيطر عليّ و تشل تفكيري.

لم أجد أي بد من الرحيل، و فورا!

قبضت على كف مها الممسك بذراعي و تعاوننا على إغلاق المرآب بسرعة قبل أن نهرول بقلوب تنتفض إلى السيارة حيث تنتظرنا منى في المقعد الأمامي تنتحب في رعب...

و طوال الطريق أخذت منى تتحدث بانفعال و تهتف بصوت مبحوح:

- هذه الأرض ملعونة و لا ريب حلت علينا لعنتها نحن أيضا!

و مها تجيبها مقطبة الجبين بكلمات مقتضبة محاولة تهدئتها و قلبــها هــي يحتاج إلى تهدئة، بينما لم أنبس أنا بكلمة واحدة و قد أشــحت بــوجهي باتجاه زجاج النافذة المغلق أتابع ببصر شارد المزارع تجري هاربة جوارنــا واحدة تلو الأخرى، عابسة الملامح واجمة، تبكتني بصوت عميــق يتــردد صداه مرعبا في نفسي:

- لطالما أنذرناك! هيا تجرعي ما كنت تنكرين!

و تندفع في شراييني قشعريرة باردة ينقبض لها قلبي و تتخلخل لها أفكاري و تنتثر هباء منثورا، فأعجز عن لمها من جديد في قطار واحد.

تبا للخوف!

كل خفقة مذعورة يطلقها قلبي تبعدني عن الحقيقة ميلا، عبثا أحاول فهــم ما يجري أو ربطه بالواقع حتى يجذبني بقوة إلى تلك الأوهام الهلامية مــرة أخرى!

و المزارع مازالت تجري. كم تمنينا أن تكون لنا أيضا واحدة!

لم نظن الأمر سهلا، فقط أردناه ممكنا !

و هاهي الجمعية الزراعية، هتفت بمها بغتة و قد طرأ لي خاطر مفاجئ:

- توقفي يا مها! هنا فورا!

خففت مها من سرعتها و هي تنحاز إلى جانب الطريق ثم توقفت تماما و هي تسألني في المرآة:

- لماذا ؟!

فتحت بابي و ترجلت ثم انحنيت على نافذها قائلة في لهجة حاسمة لا تقبل الجدل:

- خطرت لي فكرة قد تكون هي حل اللغز، عليّ أن أتأكد منها.

هتفت منى في رجاء باك:

- لا يا منار أرجوك، أريد أن أعود إلى بيتي!
- انطلقا أنتما و اتركاني، فقط اتصلا لي بوليد، أخبراه أن يلقاني هنا. و بيننا اتصال حين أعود.

قلتها و ابتعدت بالفعل بلا انتظار أقطع الطريق مهرولة إلى الجمعية، لكنني لم أذهب إلى المكتب هذه المرة كالعادة، بل اتجهت من فوري إلى الفناء الخلفي حيث دارت عيناي بلهفة فيما حولي، و هي ذي ضالتي!

أشرق في عيني بريق النصر و امتلأت روحي بالارتياح، هاك معداتنا بذاها بأرقامها التي أحفظها عن ظهر قلب، هي ذي أشباح النوبارية! بقى أن أعرف السبب وراء تلك المزحة السخيفة.

أدرت بصري مرة أخرى لأجد ذلك الموظف المستفز واقفا بين بعض العمال منهمكا في الحديث فتنفست بعمق و مشيت إليه في حسم بخطوات ثابتة و قد حل الغضب محل الخوف في أعماقي و ارتدى رداء عدائيا تقطّب له جبيني و تقلصت له قبضتي في تحفز، و لم يكد يلمحني حتى

توقف عن الكلام و عقد ذراعيه أمام صدره مستقبلا إياي بوجه بارد فابتدرته قائلة بحزم:

- لماذا استعدت معداتنا دون إذن ؟ ألا تعلم أن اقتحام ملكية خاصة و سرقة ما فيها هو جريمة يعاقب عليها القانون؟!

ابتسم باستخفاف و قال بسخرية:

- معداتكم؟! إنها معدات الحكومة يا شاطرة، و أنا بصفتي الموظف المسئول يمكنني استردادها في أي وقت.

أثار بروده حفيظتي لكنني تصنعت البرود أنا أيضا و أنا أقول:

- ليس من حقك، إنها لنا طالما ندفع ثمن تأجيرها، هكذا ينصُّ العقد.

- عقدكم بلليه و اجرعي ماءه يا حلوة فقد قررنا سحب كل تعاملاتنا معكم، هيا اجري ابحثي لك عن لعبة أخرى.

و انفلتت منه ضحكة ساخرة قصيرة متابعا:

- باربي مثلا!

تصاعد الغضب في أعماقي يشعلها نارا، و غص حلقي بدمعة قهر كادت أن تنفلت مني لولا أن أحكمت سيطرتي عليها في آخر لحظة مما ملأني بتوتر نزع عني قناع البرود الذي أحاول ارتداءه فاحتد صوتي قائلة في تحد:

- ليس من حقك أيضا، فأرضنا تقع في زمام المنطقة و من حقنا الاستفادة بخدمات هذه الجمعية الزراعية بالذات، إنه القانون و لست تملك تغييره و لا التعدي عليه و إلا شكوتك في الشرطة.
- الشرطة؟!

قالها بتهكم لاذع ذيّله بضحكة ساخرة جلجلت في المكان بأكمله و جذبت إلينا أنظار كل الموجودين و ما هي إلا ثوان قليلة حتى وجدت نفسي أقف أمامه في قلب دائرة من البشر يتابعون ما يحدث في فضول و اهتمام يتهامسون ببعض التعليقات الجانبية دون أن يتدخل أحد لينقذني من براثن ذلك السادي المتغطرس الذي قال باستخفاف و هو يستدير مبتعدا عني بلامبالاة:

- لا بأس يا ماما! اذهبي للشرطة، إلعبي محكمة، هيا دعينا نتفرج!

ذكّى استخفافه نيران غضبي، و زاد تجمهر الناس حولنا من حدة توتري، كنت أبذل مجهودا خرافيا كي أسيطر على هياج مشاعري و الحفاظ على وقاري وسط هذا الجمع الغفير و أنا أشعر بالسخط على كل واحد منهم لموقفهم السلبي من الأحداث كأنهم يتابعون فيلما لا يستطيع أحد التدخل في أحداثه.

شعرت بخليط مشاعري الملتهبة يثور في أعماقي يفقدني تماسكي و تزداد حدة صوتي و أنا أصيح به:

- سأستردهما! سأستردهما على الرغم من أنفك المتغطرس هــذا و أمسح به أرض الجمعية أمام كل هؤلاء الناس!

و يبدو أن قولي هذا قد نجح في استفزازه و إثارة غيظه بشدة و عنف، فقد توقف فجأة و التفت إليّ دفعة واحدة و هو ينقض عليّ بصورة وحشــية أرعبتني و دفعتني للتراجع في ذعر بينما رفع هو كفه لأعلى و هو يصـــرخ بثورة عارمة:

- ماذا قلت أيتها الـــ.......
- لطفي!

صيحة عالية آتية من مكان ما خلفي تمتلئ حزما و قوة باغتتـــه فســمرت كفه في الهواء و بعثرت الكلمات فوق لسانه فبدا كمن تحـــول فجـــأة إلى حجر في قصة من قصص الأطفال، بينما تابع صاحب الصيحة في غضب:

- ويحك كيف تجرؤ ؟!

التفتت بلهفة أرى ذلك الذي أنقذني، و رأيته..

كان رجلا في منتصف عقده الرابع، قمحي البشرة قد لفحته أشعة الشمس فاكتسب سمرة و حمرة توحي بالخشونة و الجدية و طول سنوات العمل في الصحراء، طويل القامة في اعتدال، ممتلئ العود شيئا قليلا، يتراجع شــعره الأسود الناعم إلى الوراء كاشفا عن صلع لم يحدّ من وسامة ملامحه الناطقة بالقوة و المهابة، يتناثر الغضب من عينيه السوداوين و يلقي بشرره أمامـــه

فيسبقه في اندفاعه نحونا ليجبر الجموع المحتشدة على إفساح الطريق أمامه حتى اقترب من لطفي صائحا باستنكار حاد:

- هل جننت يا رجل؟! ترفع يدك على امرأة؟!

ارتبك أمامه كلصّ ضبطه رئيس المباحث متلبسا بجريمته و تلعثم قائلا في توتر يحاول عبثا استجماع جملة مفيدة واحدة:

- لكن يا باشمهندس، هذه الفتاة، إنها.. أنت تعلم أن...

قاطعه بصرامة قائلا:

- صه! لا أبالي من هي، لكنك ستعيد إليها معداتها حالا!
- و لكن يا باشمهندس...
- و تعتذر فورا عن كل إهاناتك لها.
- أنا أعتذر لهذه الحقيرة ؟!

كانت هذه هي آخر عبارة يقولها، و شهقت أنا و قلبي يكاد يتوقف من فرط الدهشة و المفاجأة، فقد اندفعت قبضة الباشمهندس تنفجر في وجه لطفي كالقنبلة و تلقي به على أرض الفناء وسط بحر من صيحات المتفرجين إياهم، و تلقي في أعماقي بأطنان من الانبهار الحبست له أنفاسي.

و لم يكتف بهذا بل اندفع نحوه و أمسك بتلابيبه ليجبره على النهوض و يقربه من عينيه الضاجّتين بالغضب و هو يقول من بين أسنانه في صرامة:

- ستفعل ما آمرك به أيها الحقير بلا أي حرف زائد و إلا أقسم أنك ستحيا تذكرني فتتمنى لو لم تلدك أمك!

اتسعت عيناي و خفق قلبي بقوة، قنبلة أخرى كلامية هذه المرة في وجهه الذي صار آية للرعب و الدهشة في معجون يثير الاشمئزاز دون أن ينطق لسانه السليط بحرف واحد يرد له كرامته التي بعثرتها قبضة الباشمهندس في كل مكان أمام الحشد المتجمهر و أمامي، كل ما فعله هو أن لملم أذياله و ابتعد صامتا ينفذ أوامره بحذافيرها.

كضبع جبان شرس، لا يتجبر إلا على من لا يملك رد ظلمه، و ينكمش في رعب مزر أمام من هو أقوى منه!

و بقيت أنا واقفة في مكاني مبهورة الأنفاس لا أقوى على الحراك، من هو هذا الرجل ؟! و أية قوة عجيبة يملكها حتى يأمر و ينهى كما يشاء دون أن يقوى أي من الموجودين على الاعتراض؟! شهامته النادرة و قوة شخصيته العجيبة ذكرتني بشخصية "الفتوّة" الشعبية القديمة، ذلك الرجل الذي ينذر نفسه حاميا لأبناء حيّه طالما هو حي يرزق، يظهر فقط حين الحاجة إليه ليؤدي واجبه المقدس ثم ينسحب فورا ليستأنف حياته بصورة عادية كأن لم يفعل شيئا دون أن ينتظر كلمة شكر واحدة أو حتى نظرة امتنان.

أفقت من وقع المفاجأة لأجده قد اختفى من أمامي فأخذت عيناي تبحثان عنه في لهفة حتى وجدته هناك، يتابع إنهاء إجراءاته فيما يبدو أو أيا ما أتى به إلى الجمعية اليوم بمنتهى الهدوء دون أن يلقي بالا للهمسات و النظرات التي تناثرت حوله من كل من في المكان!

استجمعت شجاعتي و اتجهت إليه، تنحنحت فالتفت لي و ابتسم حين رآني فابتسمت بارتباك و قلت:

- عفوا يا باشمهندس، جئت أشكرك على ما فعلته اليوم من أجلي، رغم أنه لا توجد كلمة شكر يمكنها أن توفيك حقك.

أشاح بكفه و قال ببساطة:

- لا عليك، أنا لم أفعل سوى الواجب، أي إنسان في مكاني كان ليفعل نفس الشيء.

هززت رأسي مبتسمة في مرارة و قلت مشيرة للناس من حولنا:

- في العالم المثالي ليس هنا! أترى كل هؤلاء؟ كانوا جميعا وقوف يتفرجون، لم يتدخل أي منهم و لو بكلمة كي يبعد شرّه عني، إن ما فعلته لهو فروسية حقة في زمن انقرضت فيه الفروسية، و أنا سأظل مدينة لك بالعرفان طيلة عمري.

ابتسم في حرج و أسرع يقول مغايرا سير الحديث:

- هل أنهى لك إجراءاتك؟

إنه يهرب من الثناء! كل ما فعله و لا ينتظر حتى امتناني!

ابتسمت قائلة:

- ليس بعد، لكنني واثقة من أنه سيفعل بإذن الله، فقد كان الدرس قاسيا لكنه كان يحتاجه!

ضحك في صفاء قائلا:

- لا بأس، فقط أخطريني في أول مرة ينساه فيها و أنا على استعداد لأن أمنحه مراجعة خاصة على حسابي بكل سرور!

لم يكد ينهي عبارته حتى اقترب منا لطفي مطأطئ الرأس في ذلـــة يقـــول بصوت خافت و أدب جم لم أعهده فيه:

- عذرا باشمهندس..

التفت إليه الباشمهندس قائلا بحزم:

- ماذا يا لطفي، هل أعددت كل شيء للباشمهندسة؟

تراجع للوراء خطوة قبل أن يقول بارتباك:

- نعم بالطبع، لكن لا يوجد ســـائق واحـــد الآن ليوصـــلهما إلى أرضها، ربما لو انتظرت الباشمهندسة للغد.

قاطعه قائلا بلهجة صارمة:

- لا، اليوم لا غدا، أريد أن تكون المعدات في أرضها اليوم، حالا!

تدخلت قائلة:

- عفوا يا باشمهندس، لكنني لا أحتاج لسائقين، سأنقلها بنفسي اليوم إلى هناك.

التفت إليّ قائلا بدهشة:

- بنفسك؟! و لكن كيف؟!

- إن أخي في الطريق إلى هنا الآن و سننقلها سويا بإذن الله.

ثم نظرت في ساعتي و قلت:

- في الحقيقة لقد تأخر قليلا، بعد إذنك سأذهب لأهاتفه.

قلتها و ابتعدت إلى حيث الهاتف العام لكنني سمعت صوته يهتف من ورائي:

- يا آنسة.

التفتت نحوه فتابع:

- و هل سيأتي أخوك بسيارة؟

أومأت برأسي أن نعم فابتسم قائلا:

- ستحتاجان لقائد ثالث معكما إذا.

و اتسعت ابتسامته و هو يتابع:

- ليس هناك سواي، إن كنت أجدي.

* * *

للنسخة الكاملة رجاء اضغط زر:

Add to cart

www.tulipbook.com

الزنبق
للنشر و التوزيع

حلم الطفولة..

آه يا علي!

لماذا يمتلئ الطريق

بيننا بأنصال حادة من

الشك تكاد تفتك بي كلما حاولت

العبور إليك أو كلما حاولت أنت العبور إلي؟!

ماالذي تخفيه عني و يصنع بيننا هذا الحاجز المنيع؟!

و ما سبب ذلك الخاطر المخيف الذي اعتراني فجأة بأن

هناك علاقة ما تربطك بالقصاصات و مشاكل الجمعية الزراعية

وخطابات التهديد إياها! علاقة خفية لا أفهمها، و لا أعرف حتى لماذا

راودني مثل ذلك الخاطر السخيف.. لماذا، ولماذا، و لماذا ! و هكذا صحوت

أسوأ حالا مني قبل أن أنام، أتمنى لو أنني لم أنم !